الجزء ٢ المجلد ٩

مجلة المجمع العلمي العربي

(دمشق) في شباط سنة ١٩٢٤ م الموافق جمادى الثانية ورجب سنة ١٣٤٢ هـ

النهضة العلمية الحديثة

والانتقاد

يراد بالنهضة العلمية الحديثة هبّة الناطقين بالضاد في سورية ومصر والعراق وبقية الاقطار العربية ويقظتهم منذ اواسط القرن الماضي لتحصيل العلوم والمعارف متدرّجين في تعميم انتشارها وتسهيل اذّخارها بانشاء المدارس والجمعيات وطبع الكُتُب ونشر الصُّحف والمجلات وغيرها من وسائل تهذيب النفوس وتثقيف العقول وإنارة الأفكار

والانتقاد انواع . منها النقد السياسي لاعمال رجال الحكومة والانتقاد الاجتماعيُّ للأخلاق والعادات والنقد العلميّ الادبيُّ وهو المراد في هذه المقالة .

ولا يقتصر الانتقاد العلميّ على ما يُكتب ويكون كلّهُ من سقط المتاع كما يظنُّ بعض الادباء ويزعم معظم القراء . بل يتناول بضاعة الكتّاب بجذافيرها مما تخطّهُ اقلام العلماء وتجود بهِ قرائح الشعراء والخطباء . هذه كلها يقضي النقد الحقيقي بأن تُعرَض على جهابذتهِ ليسبروا غورها ويعجموا عودها ويروزوا الفاظها ومعانيها . فينبذوا ما يجدونهُ ردي ء الاسلوب ركيك اللفظ غثّ المعنى وينوّهوا بكلّ ما يرونهُ مستكملاً شروط الصحة والحسن والجودة . فالانتقاد كور الكتابة يصهر جمرهُ كلّ مكتوبٍ ماحصاً فاحصاً . فان كان من الزيوف البهارج ظهر خبثهُ في خبَثٍ والاّ بدا بعد الصهر ذهباً خالصاً .

واذا انعمنا النظر في نهضتنا هذه وجدنا فيها على حداثة نشأتها ما يسرّنا من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مظاهر التقدُّم وادلّة النمو ولكننا نعجب إذ نفتّش عن الانتقاد العلمي الادبي الذي نشأ معها وصحبها في خطواتها الاولى وبالجهد نرى لعينهِ اثراً ونسمع لمبتداهِ خبراً مع كونها في اشدّ احتياجٍ اليه لانها بدونهِ تظلّ واهية الاساس غير راسخة القدم

نطالع صحفنا اليومية ومجلاتنا الاسبوعية والشهرية وعلى وفرتها وكثرة ما تحويهِ من المباحث في كل مطلب فلما نجدها تتضمن انتقاداً حقيقيًّا استوفى صاحبهُ شروط النقد وتوخّى الفائدة المقصودة منه . ومن نَأْهُ بالاعراض عن الجواهر ويحكم على الامور حسب الظاهر يرض كلّ الرضى بهذه الحالة وقد يتخذها دليلاً على ان نهضتنا بلغت اشدّها واستوفت قسطها من التقدم والارتقاء وأصبح كل ما يُطبع في كُتُبنا وينشر في صحُفنا صفيّ الكوثر نقيّ الجوهر .

هذا ما يحكم به كل ضعيف الفكر قصير النظر . اما العاقل الحازم الذي لا يستسمن ذا ورم ولا يغترّ بظواهر الامور فانه ينظر الى خلوّ نهضتنا من الانتقاد بعين الاسف والقلق . يأسف لانها لا تنفكُّ قاصرة وهي في احتياج لا مزيد عليهِ الى انتقاد يرقب كل ما يطبع وينشر بعين لا تنعس ولا تنام حتى تصان موارد الكلام من مزالق الالسنة ومعاثر الاقلام . ويقلق لانه يخاف ان يطول عهد انقطاع الانتقاد من نهضتنا على خلاف ما يراهُ في غيرها من نهضات الامم التي تجاريها في مضمار الحضارة والعمران فيخلو الجوّ لكلّ من شاء ان يكتب ويخطب وينظم وينثر فيسرح ويمرح ويبيض ويصفر لا يخشى مهيمناً ولا يخاف رقيباً فتعمُّ فوضى الكتّاب ويختلط الخطأ بالصواب ويذهب الخلل في بضاعة الادب كل مذهب حتى تبيت ومعظمها معبث للسخافة وملعب . ومأكل للركاكة ومشرب . واقلّ ما يكون لهذا الانقلاب من سوء التأثير في نهضتنا انه يعوق سيرها فتبطىء حركتها وقد تقف عن المسير وترجع القهقرى .

واذا كان الانتقاد كما ذكرنا عنه من حيث علاقته بنهضتنا وشدة احتياجها اليه فلماذا نفتّش عنه فيما يُطبع ويُنشر في عواصم بلادنا وامهات مدننا من اسفار ورسائل وصحف ومجلات فنراه خافت الصوت خامل الذكر ضئيل الاثر ؟ ما الذي اوجب ركود ريحه وخمود مصابيحه ؟ هذا سؤال يسهل الجواب عنه بعد التأمُّل في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثلثة الامور الآتية : —

﴿أولاً القُرّاء﴾ معظم قرّاء اللغات الاجنبية في اوربا واميركا يقدرون الانتقاد قدره ولا يجهلون الغرض المقصود منهُ . والنقاد المطبوعات عندهم من افعل الوسائل لرواج سوقها ونفاد بضاعتها والاقبال على شرائها والاستفادة من مطالعتها ولهذا ترى فنّ النقد الجليل بالغاً عندهم غايتهُ من ارتفاع الرواق واتساع النطاق . وهناك المنتقدون والمؤلفون والقراء جميعهم يعلمون ان النقد خير محّص ومنقٍّ لعادن العلم والادب وبهِ يُعرَف الذهب من النحاس ويُفرَق بين الدرّ والخشلب .

اما قراء اللغة العربية فاكثرهم باقون لسوء الحظ لا يدركون حقيقة الانتقاد . فهو الى الآن غير مألوف عندهم . وهم لم يتعوّدوهُ بعد . وليس لهم الالمام الكافي بالفائدة المرتجاة منهُ . ولا يدرون انهُ من اكبر عوامل التقدم الادبيّ واهم اركان الارتقاء العلميّ . ولجهلهم لهُ ينفرون منه ويعدّونهُ مرادف التخطئة والتلحين . فاذا طالعوا في صحيفة او مجلة انتقاداً لكتاب اجمعوا على ازدرائهِ كل الاجماع واطبقوا على عدّهِ من سقط المتاع واعرضوا عنهُ إعراضاً يقضي على بضاعته بالكساد فيصاب صاحبهُ وطابعهُ بضررٍ ماديّ كبير والقراء بخسارة ادبية فادحة .

﴿ثانياً الكتّاب﴾ ويراد بهم ارباب الاقلام من اهل الادب ومعاشر الشعراء والخطباء الذين تنشر الصحف والمجلات مقالاتهم وخطبهم ونقرّظ ما يعرضونهُ في سوق الادب من بضاعة الكتب التي يترجمونها او يؤلفونها او يصنفونها في كل فنٍّ ومطلب . وهم فريقان محترفون وهواة . فالمحترفون هم الذين يعملون بالقلم ليتّقوا شرّ المتربة ويعيشوا من شقّ تلك القصبة . والهواة هم الذين يشتغلون بالعلم والادب لانّ لهم فيهما حفاوةً صحيحةً مجرّدةً من المآرب ورغبةً حقيقيةً منزّهةً عن حبّ الارباح والمكاسب . ومعظمهم هواة كانوا ام محترفين يشق عليهم ان تُنقد كتُبهم ومؤلفاتهم وينظرون الى الانتقاد والمنتقد بعين الشانئ الكاشح . وذلك لانهم قد يكونون من الهواة ذوي الغرور الذين يسترسلون في شدّة ثقتهم بغزارة علمهم وسعة اطلاعهم وجصافة عقولهم واصالة آرائهم وصحة احكامهم ويوشكون ان يدّعوا العصمة من الخطإ فيسوؤهم جداً ان يُوجّه اقلُّ انتقادٍ الى كُتبهم ولا يهون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عليهم الاعتراف بالغلط . فيماردون ويكابرون ويتمادون في الإصرار على ادّعاء صحة ما كتبوه وصواب ما قالوه . وتطول شقّة الأخذ والرد بينهم وبين المنتقدين وينتقلون من المحاورة والمناظرة الى المنازعة والمشاجرة فالمقاذعة والمهاترة . ومما يؤسف عليه كل الاسف ان هذا الامر الشائن المعيب طالما تكرّر وقوعه بين الكتّاب والمنتقدين حتى علق باذهان الناس ان الانتقاد عندنا عبارة عن قذائف مساب ومثالب وسهام شتائم ومطاعن . يترامى بها الكتّاب والمنتقدون . فتدور على اسلات السنتهم وتُرمى عن قسيّ افلامهم لاقلّ اختلاف واصغر مناقشة . ومما اتذكره من هذا القبيل ان اديباً انتقد كتاباً في احدى المجلات وبعد ما افتتحه باطراء المؤلّف اشار الى بعض الهفوات التي فيه بما لا مزيد عليه من التلطّف والتأدب . فانبرى له المؤلف وسلقه بالسنة حداد واستشهد السماء والارض على انه لم يحد قط في ما كتبه عن محجة السداد . وهذه الحالة السيئة أُخلق بها ان تكون وليدة الجهل والغباوة لا نتيجة العلم والعرفان ! !

وقد يكون الكتّاب من المحترفين الذين يعيشون على غلّة اقلامهم وريع قرائحهم فينكرون الانتقاد ويمقتونه لزعمهم ان عامة القراء يجهلونه ويسيئون فهم المراد به . فاذا سمعوا بانتقاد كتاب اعرضوا عن اقتنائه وخاب امل صاحبه برواجه

جاءني يوماً احد الادباء بقصة ترجمها من احدى اللغات الاوربية وطلب اليّ ان انتقدها وكرّر طلب الانتقاد بقوله «اروم انتقادها لا تقريظها» . فصدّقت انهُ يعني ما يقول واثنيتُ على شجاعته الادبية . ومع هذا كلهِ جريتُ في انتقادي لقصته على مقتضى الحال وراعيت مكان القراء من الفهم والزعم وجعلتُ كلامي تقريظاً في صورة انتقاد فبالغتُ ما استطعت في وصف محاسن الترجمة وفصاحة المباني وبلاغة المعاني ونوّهت ببراعة ناظم عقدها . وموشّي بردها . ثم مررتُ بعيوبها الطف من مرور الوسن بالاجفان . وارقّ من خطرات نسمات الصباح على وجنات الافنان . وقبلما اعددتُ مقالتي للطبع عرضتها على صاحب القصة واخذت اراقبه وهو يتلوها . فرأيته يوشك ان يطير سروراً وابتهاجاً بمطالعة عبارة التقريظ والاطراء . ولكن لما وقع نظرهُ على بعض الغلطات التي اشرتُ اليها حدّق اليّ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وحملق ثم وجم وجوم المغيظ المحنق ثم قال وهو يكاد من شدة سخطهِ يتمزّق : — « اراك تتعمّد بتخطئتي حطّ منزلتي عند الادباء واسقاط فصتي في عيون القراء » !! فقد عدّ تقريظي تخطئةً لانهُ رأى عليه من الانتقاد مسحة خفيفة لطيفة . فكيف لو كان انتقاداً محضاً خالياً من اثر الهوادة والمساهلة ؟ وحينئذ تحققت انهُ عندما طلب الانتقاد انما اراد التقريظ البحت المصطلح عليهِ في هذه الايام لخداع القرّاء واغرائهم بالاقبال على الشراء . وذلك بالإيغال في اطراء المناقب والمزايا والاغضاء عن المعايب والخزايا . فاجبتهُ الى ما اراد واسفتُ كل الاسف على مصير الانتقاد في هـذه البلاد .

﴿ثالثاً المنتقدون﴾ . عندنا والحمدلله جهابذة نقد يحق لنا ان نباهي بهم ونفاخر . ولكنّ كثيرين منهم يحيدون في انتقادهم عن مناهج العدل والانصاف . ويوغلون في متايه الزيغ والاعتساف . فينتقدون ولكن لا لتأييد القواعد الصحيحة . وتعميم نشر المبادىء الصالحة . وتخليص جواهر الحقائق من اعراض الاوهام . وحفظ موارد اللغـة الفصحى مصونة على قدر الامـكان من اكدار لهجات العوام . بل للتفيهق والتحذلق وتعريض دعوى التفوّق في العلوم والمعارف او التحامل على الذين ينتقدون كتبهم متعمّدين تنقّصهم بنشر عيوبهم وشهر غلطاتهم اما حسداً على نعمة او سلاً لسخيمة او لغير ذلك من الاغراض الدنيئة

هذه هي الاسباب التي يراها القارىء اللبيب عاملة معاً على انتفاء شيوع الانتقاد الحقيقيّ . ولاجلها نبحث عنهُ في صحفنا ومجلاتنا فلا نرى لهُ مضرب ظلال ولا مسحب اذيال . ولا ينفكّ عندنا ميتاً في صورة حيٍ او عدماً في ثوب موجود . امّا ما نراه شائعاً مستفيضاً على وجوهٍ توهم النقد فهو بالحقيقة اما مثالب ومطاعن للتشفي والانتقام او تقاريظ وأماديح للتملّق والترضي وفي كلا الامرين ما فيهِ من تضليل القراء وارتـكاب ما يستهجن ويُعاب حتى على الجهلة الاغرار .

والسعي لإزالة هذه الاسباب يتمّ (اولاً) بمواصلة الـكتابة في موضوع الانتقاد ووصف طرقهِ ووجوههِ وبيان فوائدهِ حتى يألفه القرّاء ويتعوّدوه ويفهموهُ حق الفهم ويعلموا انهُ لا يُستخدم الاّ لتمحيص الآراء الصائبـة والافكار الصحيحة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والاعمال الصالحة وتنقيحها حتى تخلص من شوائب الخطإ والضعف والنقص وتجلى في حلل الإحكام والاتقان .

(وثانياً) ان يقلع بعض الكتّاب عن الصلف والعناد وادعاء العصمة فيما يكتبون ويقبلوا بسعة الصدر وجزيل الشكر تصحيح كل خطإ يدلّهم المنتقدون عليهِ ذاكرين القول « اذا كان كاشف الغلط عظيماً فالمعترف بهِ اعظم » وان العصمة والكمال لله وحدهُ .

(وثالثاً) ان يكون رجال النقد كاعدل القضاة في جعل الانتقاد لقصد واحد — إحقاق الحق وازهاق الباطل — وهو خير الاغراض واشرف المقاصد . فيزنون ما ينتقدونه بميزان الحق ولا يحيدون في احكامهم قيد شعرةٍ عن قول الصدق . فتجيء كلها صحيحة لانها مما يقضي به الذهن الثاقب ويُمليهِ روح الاخلاص بلسان اللطف والادب ويخطّه يراع الامانة على صحيفة الاستقامة مجرّداً من الهوى ومنزّهاً عن الغرض لا يُراد بهِ سوى جوهر الحقيقة الذي من دونهِ كل شيءٍ عرض .

فاذا تمّ لنا هذا — والامل كل الامل انه يتمّ — ظفرنا باكبر عامل من عوامل نهضتنا العلمية الادبية وجرى تقدمنا فيها على ما يرام من حيث سرعة المسير وسعة الانتشار والسلام .

(القاهرة) اسعد خليل داغر

لا تبكِ من فقد الشبا ب وَبكِّ من تبعاته
فلرب امرٍ معضلٍ لَجّجت في غمراته
لولا الشبابُ وبعض ما — استهواك من لذّاته
وعلاك حين اطغتهُ في الغيّ من سكراتهِ
لكنه غطّى العيوبَ — عليك من سوآتهِ
حتى اذا منه القريبةُ — آذنت بشباتهِ
خلّى عليكَ بلابلاً في الصدرِ من حسراتهِ

(ابن زياد)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net